المورد

مجلة تراثية فصلية
تصدرها وزارة الثقافة والاعلام - دار الشؤون الثقافية العامة
الجمهورية العراقية
المجلد الخامس عشر - العدد الثالث ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م
٣

WWW.ATTAWEEL.COM

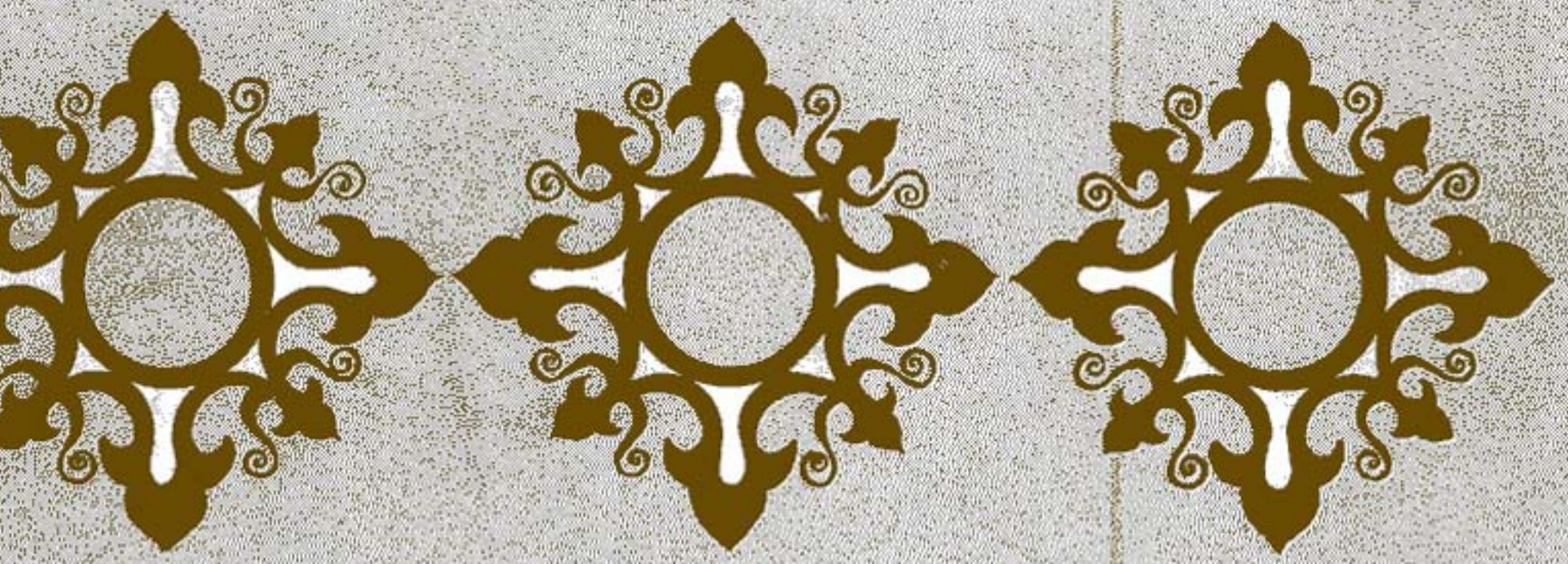

أسد الدين محمد

الأوليات التاريخية لاهتمامات العرب بعلم الاجتماع

الدكتور

أحسان محمد الحسن

كلية الاداب ـ جامعة بغداد

اهتم العرب قبل الاسلام بقضايا وأمور المجتمع اهتماما كبيرا ، فهم لم يعتنوا بأمور معيشتهم ومشكلات حياتهم وظروف بيئتهم الطبيعية فحسب بل اعتنوا أيضا بالعلاقة بين البيئة والمناخ وطبيعة النظم الاجتماعية التي تحدد مسارات حياتهم الخاصة والعامة وأهتموا بأنظمة السياسة والحكم على الرغم من بساطة الحياة القبلية التي كانوا يعيشونها وركزوا على شؤون العبادة والتدين بعد أن استنبطوا أصول التفكير الديني القديم ، كذلك نظموا مراسيم وتقاليد الزواج والطلاق ووضعوا الاسس الاجتماعية والانسانية التي ترتكز عليها العائلة والقرابة العربية ، كما أنهم عرفوا نظم التربية والاخلاق وحقيقة الطرائق التي من خلالها يكتسب الابناء سجايا وخصال وقيم آبائهم وميزوا بين القيم الصالحة والقيم الشينة[1] ، فقد كان العرب يقدسون العصبية والمروءة والشجاعة ويمجدون القوة ويميلون الى القتال ويعتبرون الحرب الحل الحاسم والاجابة الصريحة بصدد المشكلات التي تواجههم ،

ولما انتشر الاسلام حقق في فترة وجيزة الوحدة القومية في بلاد العرب ، وهي الوحدة التي لم يستطع العرب في الجاهلية أن يحققوها بالرغم من توفر ركائزها كوحدة العادات والتقاليد والاعياد القومية والتاريخ واللغة والاصل المشترك[2] والاسلام انما هو دين أجتماعي جاء لانقاذ البشرية من الفساد والتداعي والتخلف والكفر والالحاد وبناء المجتمع العادل والمستقر والمرفه ، كما أن النظام الاجتماعي في الاسلام جزء من الدين ، فقد أهتم الدين بالمعاملات كما أهتم بالعقائد والعبادات والتشريعات المنظمة لكثير من النظم الاجتماعية كالزواج والطلاق والمواريث والمحارم والزكاة والرق والصوم والضوابط الاجتماعية والعدالة والمساواة والحرية والتكافل الاجتماعي وحقوق الانسان[3] ،

(1) عبدالباقي ، زيدان (الدكتور) . التفكير الاجتماعي : نشأته وتطوره ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص ٨٠ .

(2) زيدان ، جورجي . تاريخ التقدم الاسلامي ، الجزء الاول ، القاهرة ، ١٩٥٥ ، ص ٥٢ .

(3) الخشاب ، مصطفى (الدكتور) . علم الاجتماع ومدارسه ، الكتاب الاول ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٥ ، ص ١١٢ .

WWW.ATTAWEEL.COM

ان الاسلام لم يهتم بالقضايا الدينية واللاهوتية والغيبية فحسب بل أهتم أيضا بكل ما يتعلق بطبيعة الانسان وحيثيات المجتمع مهما تكن دقيقة وعقدة[٤] .

فقد أهتم العرب في ظل الاسلام بضرورة تهذيب اخلاقية وسلوكية المؤمن وتحريره من الادران والامراض والعقد الاجتماعية . وأهتموا بضرورة تقوية علاقة المسلم بأخيه المسلم لغرض تحقيق وحدة المسلمين . هذه الوحدة التي تقود الى قوتهم وعزتهم ودحر أعدائهم وأعداء الله . وركز الاسلام على أمور الحياة والمجتمع أذ حث الاغنياء والميسورين على انفاق بعض أموالهم على الفقراء واليتامى والمحتاجين وأبناء السبيل والتقيد بالاقتصاد في النفقات وعدم التبذير ، والالتزام بالعمل الصالح والطاعة والصبر ونبذ النزاع والخصام وأحترام الوالدين والصدق في القول وحب الاخرين والتفاني في خدمتهم . وأهتم العرب كذلك بوحي من مبادىء وعقيدة الاسلام بشؤون العلم وطلب المعرفة والوقوف ضد العبودية والاقطاع وعتق المرأة وتحريرها من القيود والمظالم الاجتماعية .

أما مجالات الفكر في عصر الحضارة العربية الاسلامية فكانت واسعة النطاق نظرا لفاعلية حركة النقل والترجمة وزيادة العناية بكل روافد العلم والثقافة[٥] . أن حركة العلم والادب والثقافة شملت العلوم الكونية والفلكية والرياضية والطب والكيمياء والفنون الجميلة . كما شملت الدراسات السياسية والقانونية والادارية والاجتماعية . وفي هذا الصدد نود عرض وتحليل الهبات الفكرية والمساهمات النظرية التي قدمها المفكرون الاجتماعيون العرب الذين ظهروا في فترة القرون الوسطى عندما كانت الحضارة العربية الاسلامية في أوج نهوضها وتقدمها وازدهارها وعندما كانت أوربا في حالة سبات عميق أنعكس على أجزاء ومفاصل وميادين حضارتها كافة لقد عنى المفكرون الاجتماعيون العرب الذين ظهروا في فترة القرون الوسطى بدراسة ديناميكيات الحياة الاجتماعية وتحليل عوامل التطور والطفرة التي أدت الى التغير الاجتماعي السريع الذي لم تشهده أمة أخرى في تلك الفترة . وأهتم هؤلاء بدراسة حقيقة الاجتماع البشري وعلاقته بطبيعة الانسان ومعطيات البيئة والعوامل المؤثرة فيها[٦]. كما أنهم وصفوا مكونات العمران البشري وحللوا طبيعة الفعل وردد الفعل بينها وشخصوا العوامل الموضوعية والذاتية التي تؤدي الى تغيرها من شكل لاخر أو التي تؤدي الى تكاملها وأستقرارها على مر الزمن . ودرسوا خصائص المجتمع المثالي واثر القيادة في نموه وتطوره واستقراره وتطرقوا الى صفات ووظائف القائد ودوره في وحدة أو تفكك المجتمع .

ودرس الاجتماعيون العرب منهج الحقائق والقيم . ذلك أنهم أشاروا الى حقيقة مفادها أن على الباحث أو المفكر الاجتماعي أن يهتم بوصف وسرد الحقائق كما هي وأن لا يمزج بين الحقائق التي يهتم بجمعها ووصفها وتدوينها كما هي وبين أهوائه الشخصية ونزعاته وميوله الذاتية . فالمزج المتعمد بين الاهواء والنزعات الشخصية والحقائق ويشوهها بحيث لا ترقى الى مستوى فهم وأستيعاب الحياة الاجتماعية بمضامينها الجوهرية وابعادها الانسانية. واهتم المفكرون الاجتماعيون العرب بالمبادىء والقيم واثرها في تحديد سلوكية الانسان ورسم السمات الحضارية التي تميز المجتمع . فالانسان الصالح يميز عن الانسان الطالح بطبيعة القيم السلوكية التي يحملها ، كما أن المجتمع المثالي يمكن تمييزه عن المجتمع الضال والمنحرف بطبيعة المثل والقيم الاخلاقية التي يؤمن بها ويعتمدها في مسيرته الحضارية والروحية .

أن الدراسات الاجتماعية عند العرب الاوائل تنتظم بمظهرين أساسيين هما : المظهر الفلسفي الديني الذي يمثله الفارابي في كتابه أهل المدينة الفاضلة وأخوان الصفا في رسائلهم المأثورة . والمظهر الاجتماعي والانثروبولوجي الذي يمثله أبن خلدون وابن بطوطة[٧] . وما علينا في هذه الدراسة الا أن نوضح المساهمات الفكرية والعلمية التي قدمها هؤلاء المفكرون الاجتماعيون الاوائل في تمهيد السبيل لظهور علم الاجتماع وتطور دراساته وأساليبه البحثية والعلمية . علما بأن الهبات الفكرية لتطور النظرية الاجتماعية التي قدمها الاجتماعيون العرب

(٤) الحسن ، احسان محمد (الدكتور) . نقد أفكار ماكس فيبر عن الدين الاسلامي ، الرسالة الاسلامية ، العددان ١٨٠ ، ١٨١ ، بغداد ، ١٩٨٥ .

(٥) الخشاب ، مصطفى (الدكتور) . علم الاجتماع ومدارسه ، ص ١١٣ .

(٦) الحسن ، احسان محمد (الدكتور) . علم الاجتماع : دراسة نظامية ، بغداد ، مطبعة الجامعة ، ١٩٧٦ ، ص ٢٢ .

(٧) الخشاب ، مصطفى (الدكتور) . علم الاجتماع ومدارسه ، ص ١١٤ .

تعتبر حجر الاساس لنشوء علم الاجتماع العربي ؛ هذا العلم الذي من خلال طروحات ونظريات ومفاهيم أتطابه الاوائل كانت له خصوصياته ومزاياه وأسسه التي أعتمد عليها الكثير من المفكرين الاجتماعيين الاوربيين أمثال فيكو وهوبزولوك وروسو وهيجل علما بأن الدراسات الاجتماعية للمفكرين الاخيرين كانت بمثابة المحفز المباشر لظهور علم الاجتماع كعلم مستقل عن الفلسفة واللاهوت والتاريخ وبقية العلوم الاجتماعية • وقد تم ظهور العلم الجديد واستقلاليته عن العلوم الاخرى على يد علماء الاجتماع التقليديين كأوكست كونت وهربرت سبنسر وكارل ماركس وأميل دوركهايم وباريتو •

في هذا المجال يجدر بنا الاشارة الى اهم المساهمات التي قدمها علماء الاجتماع العرب والتي تمخض عنها كما أشرنا أعلاه بلورة الاسس والمفاهيم العلمية لعلم الاجتماع العربي • والمفكرون العرب الذين طوروا الدراسات الاجتماعية هم ١ ـ الفارابي ٢ ـ اخوان الصفا ٣ ـ ابن خلدون ٤ ـ ابن بطوطة •

١ ـ الفارابي (٨٧٠ ـ ٩٥٠م)

الفارابي هو من أحد المفكرين المسلمين الذين اشتهروا في مواضيع السياسة والاجتماع والفلسفة • من اهم مؤلفاته كتاب « السياسات المدنية » وكتاب « أهل المدينة الفاضلة » • والكتاب الاخير هو من أشهر مؤلفاته في الفلسفة والاجتماع وكان على غرار كتاب « جمهورية افلاطون » الذي ظهر في اليونان عندما كانت الحضارة اليونانية في أوج عظمتها وعزتها • وهدف الفارابي من تأليف كتاب « أهل المدينة الفاضلة » هو تكوين مجتمع فاضل وجمهورية مثالية شبيهة بجمهورية افلاطون[٨] • وكتاب « أهل المدينة الفاضلة » يعتمد على افكاره الفلسفية كما أعتمد أفلاطون على تعاليمه الفلسفية عند تأليفه لكتاب « الجمهورية » • لقد قسم الفارابي كتاب « أهل المدينة الفاضلة » الى قسمين أساسيين : قسم يهتم بدراسة الاسس الفلسفية التي تستند عليها المدينة الفاضلة ؛ ويهتم بذكر صفات الله سبحانه وتعالى وأهميته في خلق الموجودات والكائنات • وهنا أعتمد الفارابي مبادىء الدين الاسلامي وتكلم على أجزاء النفس الانسانية أو أجزاء الروح ووظائفها وتناول قضايا تتعلق بالارادة والاختيار • أما القسم الثاني من الكتاب فقد وضح فيه المبادىء التي تقوم عليها المدينة الفاضلة[٩] ، وهنا تأثر الفارابي بكل من آراء أفلاطون وارسطو • وأهم المسائل الاجتماعية والسياسية التي عالجها الفارابي في هذا الكتاب تحليل حقيقة الاجتماع الانساني ، أي كيفية نشوء وظهور المجتمع وتقسيم المجتمعات البشرية وأسس المدينة الفاضلة وصفات قائدها •

بدأ الفارابي بحوثه الاجتماعية بتحليل حقيقة الاجتماع الانساني والدوافع الاساسية الى قيامه ، ولاشك أنه رجع في هذا الصدد الى ارسطو عندما قال بأن الانسان حيوان أجتماعي بطبيعته ، أي أنه يحتاج الى أشياء كثيرة لا يستطيع الحصول عليها بمفرده • فهو لابد له من التعاون مع أعضاء جنسه لكي يستطيع بلوغ الكمال ، والكمال الذي يقصده الفارابي هنا هو السعادة • ولايتم للفرد تحقيق السعادة في نفسه عن طريق التعاون المادي فحسب، بل لابد له من التعاون الروحي أو الفكري لان السعادة تتصل بتحقيق الاشياء المادية والروحية في آن واحد[١٠] • ورغبة الانسان في تحقيق السعادة لا يمكن أن تتم الا اذا أستطاع تكوين هيئة او سلطة سياسية منظمة تتولى القيام بوظائف عديدة للافراد • ومثل هذه الوظائف ينبغي أن تجلب السعادة للمجتمع وتحقق أماني الافراد • وأذا ما انتشرت السعادة في المجتمع وكان انتشارها يعتمد على مبادىء العدالة والمساواة فان المدينة الفاضلة التي تكلم عليها الفارابي ستظهر للعيان • وقد شرح الفارابي بأسهاب طبيعة المدينة الفاضلة وذكر بأنها المدينة التي يتعاون افرادها واحدهم مع الاخر لغرض نيل السعادة ، ويتخصص كل واحد منهم في أداء عمل معين •

وأهم وظائف المدينة واكبرها خطرا وظيفة الرئاسة • ذلك أن الرئيس هو منبع السلطة العليا والمثل الاعلى الذي تتحقق في شخصيته جميع معاني الكمال ، وهو مصدر حياة المدينة ودعامة نظامها[١١]

---

(٨) الفارابي ، المدينة الفاضلة ، دار الشرق ، بيروت ، ١٩٧٢ .

(٩) نفس المصدر السابق ، أرجع الى القسم الثاني من الكتاب .

(١٠) الفارابي ، تحصيل السعادة ، دار الاندلس ، بيروت ، ١٩٨١ ، الفقرة ١٦ ، ص ٦٠-٦٢ .

(١١) شيا ، محمد شفيق (الدكتور) . الحاكم الفيلسوف عند افلاطون والفارابي ، دراسات عربية ، العدد ٧ ، ايار ١٩٨٥ ، ص ٣٤ .

ومنزلة الرئيس بالنسبة للافراد كمنزلة القلب بالنسبة لسائر أنحاء الجسم ؛ ولذلك لا يصلح للرئاسة حسب أعتقاد الفارابي الا من زود بصفات وراثية ومكتسبة يتمثل فيها أقصى ما يمكن أن يصل اليه الكمال في الجسم والعقل والعلم والخلق والدين(١٢) • ويشير الفارابي الى أن رئيس المدينة الفاضلة يجب أن يتصف بالمزايا التالية :

١ ـ أن يكون الرئيس تام الاعضاء وسليم الحواس

٢ ـ أن يكون جيد الفهم والتصور لكل ما يقال أمامه •

٣ ـ أن يكون ذكيا •

٤ ـ أن يكون حسن العبارة وقوي اللسان •

٥ ـ أن يكون محبا للعلم والعلماء •

٦ ـ ان يكون محبا للعدل ويكره الظلم •

٧ ـ أن يكون كبير النفس محبا للكرامة •

٨ ـ يجب أن لا يهتم بجمع المال •

٩ ـ أن يكون قوي العزيمة على الشيء الذي يرى أنه ينبغي أن يفعل ؛ جسورا مقداما غير خائف ولا ضعيف النفس •

١٠ـ أن يكون حكيما وعالما وحافظا للشرائع والسنن والسير(١٣) •

هذا ما يتعلق بصفات وطبيعة المدينة الفاضلة وماهية الصفات التي ينبغي أن تتوفر عند قائدها أما المدينة غير الفاضلة فتكون على اشكال مختلفة كما وضحها الفارابي ، وهذه الاشكال هي كالاتي :

١ ـ المدينة الجاهلة وهي المدينة التي ينغمر أفرادها بالترف والملذات البدنية • وأهلها يقتصرون على الضروري من المأكول والمشروب والملبوس والمسكون ولا يفكرون الا في التعاون على نيل ذلك(١٤) •

٢ ـ المدينة الضالة وهي المدينة التي يضل أهلها بالدين ويذهبون بصدد تفسير العقائد والطقوس تفسيرا فاسدا غير مستقيم • ويكون رئيس المدينة ضالا ويظن أنه يوحى اليه فيخادع ويموه باقواله وافعاله •

٣ ـ المدينة الفاسقة وهي التي يعرف اهلها آراء واتجاهات المدينة الفاضلة ولكنهم يعملون ضدها • كما أنها المدينة التي أصابها زيغ وانحراف ، حيث يعلم أهلها ما يعمله أهل المدينة الفاضلة من اسباب السعادة ، ويعتقدون ذلك كله ولكن افعالهم تكون مثل أفعال أهل المدينة الجاهلة ، فهم يقولون بما يقول به أهل المدينة الفاضلة من غير أن يعملوا به •

٤ ـ مدينة الاباحية وهي المدينة التي ليس فيها ضوابط أجتماعية وأخلاقية تستطيع السيطرة على سلوك أفرادها(١٥) •

ب ـ اخوان الصفا (القرن العاشر الميلادي)

أخوان الصفا هم جماعة من المفكرين ظهرت في البصرة في مطلع القرن الرابع الهجري • وهم من المفكرين المتحررين الذين يهدفون الى تقويم حياة الدنيا وتخليص الدين من الشوائب التي علقت به نتيجة لاجتهادات رجال الدين واستغلال الدين من قبل المشعوذين والدجالين خدمة لاغراضهم الشخصية وطموحاتهم الانانية • ولاخوان الصفا رسائل كثيرة يبلغ عددها واحدة وخمسون رسالة(١٦) • هذه الرسائل يمكن أن تصنف الى رسائل طبيعية ورسائل رياضية ورسائل نفسانية وأجتماعية ورسائل دينية وفقهية • وفي الرسائل النفسية والاجتماعية عن المجتمع والجماعة والدولة والاخلاق والقيم • ويمكن تقسيم الطروحات الاجتماعية لاخوان الصفا في عدة محاور تتعلق بطبقات المجتمع وحكم وأداة المجتمع ونوايا الدول واخلاق الانسان وقيمه الاجتماعية والسلوكية •

يعتقد أخوان الصفا بأن المجتمع يتكون من عدة طبقات تقع بعضها فوق بعض • وقد ورث الناس هذه الطبقة منذ الولادة • فهناك أبناء الملوك وهناك أبناء التجار وهناك أبناء الفقراء • ويرون في هذا التفاوت الطبقي حكمة ووظيفة(١٧) • فالانسان لا يستطيع القيام بأعمال المجتمع كافة • واختلاف طبقات الناس يسهل قيام كل طبقة بعمل معين ومن ثم تتعاون الطبقات الاجتماعية على تحقيق التكامل في الوظائف الاجتماعية • أما العوامل المساعدة على الانتماءات الطبقية فهي الحسب والنسب والانحدار الاجتماعي

---

(١٢) نفس المصدر السابق ، ص ٣٧ .

(١٣) نفس المصدر السابق ، ص ٣٨ .

(١٤) البروفسور دنيكن ميشيل . معجم علم الاجتماع ، ترجمة الدكتور احسان محمد الحسن ، بيروت ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، ١٩٨١ ، ص ١٨

(١٥) الخشاب ، مصطفى (الدكتور) . علم الاجتماع ومدارسه ، ص ١٢٤ .

(١٦) نفس المصدر السابق ، ص ١٢٧ .

(١٧) نفس المصدر السابق ، ص ١٢٨ .

للعائلة وطبيعة المهنة التي يمارسها الافراد والصفات الشخصية والذكائية التي يتمتع بها الافراد ٠

وفي المجتمع كما يشير الى ذلك أخوان الصفا لابد أن تكون مراكز رئاسية ومراكز مرؤوسية ٠ فالقائد أو الحاكم هو الذي يحتل المركز الرئاسي في المجتمع ؛ أما المراكز المرؤوسية فيحتلها عوام الشعب ٠ والعلاقة بين القائد والاتباع في المجتمع يجب أن تكون قوية لكي يتمكن القائد من اداء أدواره ويتمكن العوام من خدمة الدولة خدمة صادقة ٠ ويعتقد أخوان الصفا بأن على القائد أن يقيم سنة الدين ويحكم بين الناس بالعدل ويرعى أمورهم ويحقق مصالحهم وأهدافهم ٠ ويضيف أخوان الصفا بأن الدين والدولة مرتبطان(١٨) ، فالدولة يجب أن تخدم الدين والدين يجب أن يخدم مصالح الدولة ويدافع عن أغراضها ومخططاتها ٠

ويقسم أخوان الصفا الدول الى قسمين أساسين: هما الدول التي تعمل على نشر وتعميم الخير والدول التي تعمل للشر وتريد الحاق الاذى بالاخرين(١٩) ٠ فدولة اهل الخير قوامها العلماء والحكماء والاخيار والفضلاء الذين يجتمعون على رأي واحد ويتفقون على دين واحد ويعقدون العهد على أنهم لن يتقاعسوا عن نصرة بعضهم بعضا ٠ فهم جسد واحد في جميع أمورهم ونفس واحدة في تدبير أمور حياتهم والدفاع عن دينهم ودنياهم ٠ أما دولة أهل الشر فهي الدولة التي يبرز فيها الفاسقون والاشرار والجناة والدعاقين والمبتذلون والمنافقون والكذابون والمتسعوذون والدجالون والحاقدون والداعون الى الفرقة والانقسام والتخلف والضلالة(٢٠) ٠ وهي الدولة التي يكون فيها الفضلاء والحكماء والاخيار والعلماء جماعة مضطهدة وضعيفة لا تستطيع أنقاذ المجتمع من الشرور التي يعاني منها ٠ ومثل هذه الدولة لا يمكن أن تستمر دون نهاية مفجعة وحاسمة للاشخاص الذين قادوها الى الشر والرذيلة والفساد(٢١) ٠

ويتكلم أخوان الصفا في الاخلاق التي يقسموها الى قسمين أساسين : القسم الفطري الموروث والقسم المكتسب(٢٢) ٠ فالقسم الموروث من الاخلاق يتأثر بثلاثة عوامل هي النجم أو الكون الذي يولد تحته الجنين ؛ والتكوين البايولوجي ونسبة العناصر الداخلة فيه من الامزجة والطباع ، وأخيرا تأثير الاقليم والبيئة الطبيعية على أخلاق البشر ٠ أما الاخلاق المكتسبة فانها تتعلم كما يتعلم أي فن لان الانسان قابل لتعلم جميع الخصال والاخلاق المذمومة منها والمحمودة ٠ وهذه الاخلاق خاضعة للتغير والتبدل لان الانسان كثير التلون وأحوال الدنيا لا تثبت على حال واحدة ويستطيع الانسان أن ينتقل من خلق مذموم الى خلق محمود أو العكس بالعكس ٠

وتقدم رسائل اخوان الصفا طائفة من النصائح والوصايا التي تنطوي على أسمى القيم الاخلاقية كاداء الامانة والصدق والاخلاص في العمل وحسن معاملة الجار والايثار والتضحية في سبيل الاخرين واحترام الكبير والعطف على الصغير والكرم والفضيلة ٠٠٠ الخ ٠ والقيم التي يؤمن بها الفرد خصوصا القيم الجيدة لابد أن تؤثر في سلوكه وعلاقاته مع الغير بحيث يكون الانسان ورعا وتقيا صالحا ٠ ويربط أخوان الصفا بين القيم الاخلاقية وقضايا التربية والتعليم فالتربية الدينية والاجتماعية في نظر أخوان الصفا لها أهميتها الكبيرة في تهذيب النفس وتكوين الشخصية(٢٣) ٠ كما أن للبيئة تأثيرا كبيرا على التربية لان الطفل يقلد الذين ينشأ بينهم في كل مظاهر سلوكهم ٠ والتقليد ظاهرة لها أهميتها في مرحلة الطفولة ٠ فالاطفال يتأثرون بالاباء والاساتذة ، لذا يجب أن يكون هؤلاء قدوة حسنة لهم وخير نموذج يقتدون به في سلوكهم وطموحاتهم ونوازعهم ٠ ولظاهرة التقليد اثرها في وراثة المهن ، لذلك ينجح الاطفال نجاحا باهرا في حياتهم العملية اذا عملوا في الصناعات التي يعمل فيها آباؤهم ٠

(١٨) نفس المصدر السابق ، ص ١٢٩ .
(١٩) نفس المصدر السابق ، ص ١٢٨ .
(٢٠) نفس المصدر السابق ، ص ١٢٨ .
(٢١) نفس المصدر السابق ، ص ١٢٩ .
(٢٢) نفس المصدر السابق ، ص ١٢٨ .
(٢٣) نفس المصدر السابق ، ص ١٣٠ .

ج ـ ابن بطوطة (١٣٠٢ ـ ١٣٧٧ م)

هو أبو عبدالله محمد ابراهيم الطنجي المعروف بابن بطوطة . قام بأسفار دامت ما يقرب من ثلاثين عاما زار فيها كل أجزاء الوطن العربي وبلاد الهند والسند والصين وجنوب شرق اسيا . وتجول في افغانستان وبلاد فارس ثم الاناضول ، كما زار السودان وبلاد الحبشة وشرق افريقيا ودوّن خلاصة دراساته وتجاربه في كتابه المشهور « تحفة الانظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار » الذي ظهر عام ١٣٥٦م . وفي هذا الكتاب عبر عن أفكاره الاجتماعية والحضارية والسياسية . فقد ربط بين الظواهر الطبيعية والمناخية والارضية وبين عادات وتقاليد ومثل ومقاييس واديان المجتمعات التي زارها ، واشتق قوانين اجتماعية كونية تفسر أثر الارض والمناخ في قيام الحضارة الانسانية حيث ذكر بأن الحضارات الانسانية العريقة توجد في الاقاليم الجغرافية المعتدلة المناخ والخالية من الكوارث الطبيعية كالزلازل والبراكين والفيضانات ، ولا توجد في الاقاليم الجغرافية المتطرفة المناخ كالاقاليم الحارة جدا او الباردة جدا أو الاقاليم التي تتعرض للكوارث الطبيعية بين فترة واخرى(٢٤) . اذن ربط ابن بطوطة بين المناخ والارض وبين مزاج وفاعلية الشعوب التي زارها واستخرج قوانين اجتماعية ونفسية عنها لا تزال صحيحة الى وقتنا هذا .

وطرح ابن بطوطة في كتابه بعض الافكار والفرضيات القيمة عن علاقة الظواهر الطبيعية بالظواهر الاجتماعية وعن الفروق الفردية بين أبناء المجتمع واثرها في نشوء الشرائح والطبقات الاجتماعية .

يقول ابن بطوطة بأن المجتمع مسرح لطائفتين من الظواهر الطائفة الاولى هي الظواهر الطبيعية . والمجتمع بصدد هذه الظواهر لا يخلقها ولا ينشئها ولكنه يجدها مستقلة عنه بطبيعتها فتؤثر فيه ويتاثر بها ويخضع لنتائجها ويكيف نفسه تبعا لمؤثراتها . ويرجع اهم هذه الظواهر الى الوسط الطبيعي الذي يحيط بالمجتمع وما فيه من عوامل بيئية ومناخية . اضافة الى الجنس الذي يتكون منه المجتمع والدين الذي يدين به(٢٥) . وقد غالى ابن بطوطة في تقدير آثار هذه الظواهر على الحياة الاجتماعية بشكل يؤخذ عليه . ومع هذا فاننا لا نستطيع انتقاد ابن بطوطة لتركيزه على اثر الظواهر الجغرافية في الحياة الاجتماعية وذلك لانه كان عالما جغرافيا وانثروبولوجيا واجتماعيا في آن واحد . فهو دائما كان يعزي الظواهر الاجتماعية المعقدة الى الحقائق الجغرافية التي تميز المجتمع او الاقليم .

والطائفة الثانية من الظواهر التي درسها ابن بطوطة هي الظواهر الاجتماعية . والمجتمع بصدد هذه الظواهر يخلقها خلقا وينشئها انشاءً . وقد فطن ابن بطوطة الى أن هذه الظواهر لا توجد منفصلة بل تكون كلاً متماسك الاجزاء ووحدة حية تتفاعل عناصرها وتشتبك آثارها فينتج عن ذلك ما نسميه بالدوافع والتيارات الاجتماعية وما اشبه هذه الظواهر بفروع الشجرة المتناثرة في الفضاء والتي يجمعها جذع واحد هو المجتمع فيؤلف بينها ويكون منها عصبا واحدا تستمد غذاءها منه ولا نستطيع أن نفصل اي فرع منها الا اذا الحقنا ضررا بليغا لهذه الشجرة .

ويذهب ابن بطوطة الى أنّ هاتين الطائفتين من الظواهر لا تعمل احداهما مستقلة عن الاخرى ؛ ولكنهما يتحدان اتحادا وثيقا وترتبط نتائجهما وآثارهما ارتباطا شديدا بحيث أننا اذا حللنا ظاهرة اجتماعية واردنا الوقوف على عناصرها نجد أن بعض هذه العناصر يرجع الى ظواهر طبيعية والبعض الاخر يرجع الى ظواهر اجتماعية مماثلة لها(٢٦) . وقد وصف ابن بطوطة الظواهر الاجتماعية بأنها سريعة الحركة والتطور ، وهي على أنواع منها الظواهر السياسية ومنها الاقتصادية والاخلاقية والتربوية . وكل طائفة منها تحكم مظهرا من مظاهر الحياة الجماعية .

والمجتمع عند ابن بطوطة يتكون من طبقات مختلفة كل طبقة تتميز عن الاخرى بأسلوب حياة معين ، وهذا الاسلوب يتحدد بجملة عوامل اجتماعية واقتصادية وثقافية وعائلية متشابكة لا يمكن فصل بعضها عن بعض . ويذكر ابن بطوطة بأن النظام الطبقي يكون جامدا ومغلقا في المناطق الريفية وفي المجتمعات التي تتميز بالبدائية والتخلف . فابن الفني يحافظ على مركزه الاجتماعي المحترم مهما تكن الظروف وابن الفقير لا يمكن ان ينتقل الى المراكز الاجتماعية المحترمة والمرموقة حتى ولو كان ذكيا ونابها ومجدا . وهذا معناه بأن عملية الحراك أو

---

(٢٤) البروفسور ـ دنيكن ميشيل ، معجم علم الاجتماع ، ص ١١٦ .

(٢٥) ابن بطوطة . تحفة الانظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار (مخطوطة تم انجازها سنة ١٣٥٦) .

(٢٦) البروفسور دينكن ميشيل . معجم علم الاجتماع ، ص ١١٧ .

الانتقال الاجتماعي كما يسميها علماء الاجتماع المحدثون مفقودة من المجتمع البسيط • أما في مجتمع المدينة والحضر فهناك ثمة درجة معينة من الحراك الاجتماعي • ففي الوقت الذي توجد فيه الحدود الصلدة التي تفصل بين طبقة النبلاء ورجال الدين والطبقة الوسطى وطبقة العوام ، يشاهد المرء درجة من المرونة الطبقية كانتقال ابن العوام الى الطبقة الوسطى أو انخفاض ابن طبقة النبلاء الى الطبقة الوسطى لاسباب تتعلق بتغير الظروف وظهور الملابسات والمستجدات •

د ـ ابن خلدون (١٣٣٢ ـ ١٤٠٦م)

هو عالم اجتماعي وفيلسوف ومؤرخ عربي اشتهر في دراساته الاجتماعية العلمية التي عرض من خلالها حقيقة المجتمع الانساني وطبيعة الانسان وعلاقتها بتكوين الجماعة والنظام الاجتماعي • لقد درس ابن خلدون في كتابه المقدمة « العلاقة المتفاعلة بين الفرد والجماعة والمجتمع بعد ان قارن مقارنة موضوعية بين الكائن الاجتماعي والكائن الحيواني من ناحية البناء والوظائف والتكامل بين الاجزاء والنمو والتطور(٢٧) • ولم يكتف بدراسة نمو وحركة وتطور المجتمع ورسم قوانين التحول والديناميكية الاجتماعية التي تحكم المسيرة التاريخية للمجتمع بل درس أيضا ثبات وسكون المجتمع خلال فترة زمنية معينة والعوامل المؤثرة فيهما • كما حلل علاقة المناخ والبيئة الجغرافية بالنظم الاجتماعية السائدة • وقد عرض هذه الافكار القيمة في كتابه المقدمة الذي يعتبر بحق من أول وأشهر الكتب والمؤلفات الاجتماعية التي يعرفها علماء الاجتماع • لهذا يعتبر ابن خلدون من أوائل المفكرين الاجتماعيين في العالم وأب علم الاجتماع حيث سبق غيره من علماء الاجتماع في وضع اسس الاجتماع ومناهجه العلمية ورسم معالم تراثه الفكري والموضوعي(٢٨) • ومعظم النظريات والقوانين والافكار الاجتماعية التي طرحها ابن خلدون في فلسفته الاجتماعية والسياسية لا تزال صحيحة وقادرة على تفسير الظواهر والملابسات والمشكلات التي تجابه الانسان والمجتمع المعاصر على الرغم من تبدل المجتمع ومروره في مراحل تاريخية ناضجة •

لقد كان ابن خلدون مهتما بمواضيع كثيرة اهمها الادب والفلسفة والتاريخ والسياسة والاجتماع الذي أطلق عليه في كتابه « المقدمة » اسم علم العمران البشري الذي يدرس حسب تعاليم ابن خلدون ما أستطاع الانسان انجازه في البيئة الحضرية من معالم المدينة والتراث الحضاري وباقي الفنون الحياتية التي طورت المجتمع ونمته في ضروب ومجالات مختلفة • ودرس ابن خلدون المجتمع دراسة تاريخية اذ أعتقد بانه يمر في مراحل تاريخية متباينة وكل مرحلة حضارية متصلة بالمرحلة الحضارية التي سبقتها(٢٩) • واشار بأن دراسة الماضي ترشدنا الى فهم الحاضر والتنبؤ عن المستقبل ، ودراسة كهذه تعود الى موضوع فلسفة التاريخ الذي برز فيه ابن خلدون قبل غيره من مفكري وفلاسفة العالم • ان نظام الفلسفة التاريخية الذي أعتمده ابن خلدون في دراسة المجتمع كان ينطوي على فكرة تقسيم المجتمعات في العالم الى أنواع مختلفة تبعا لدرجة تقدمها الحضاري والمادي حيث ذكر أن المفكر الاجتماعي يشاهد نوعين من المجتمعات البشرية • الفرع الاول هو المجتمع الريفي الذي سماه بمجتمع البدو ، هذا المجتمع الذي يتميز بظاهرة العصبية التي تعتبر دعامة المجتمع القبلي • والمجتمع القبلي يتميز أيضا بكثافة سكانية واطئة وأن مهنة السكان هي الزراعة او الرعي • كما يتميز هذا المجتمع بقوة وتماسك العلاقات الاجتماعية بين ابنائه • ولا تتوفر فيه معالم المدينة الحديثة كتوفر درجة عالية من العمران والمدارس والمصانع والمستشفيات وبقية وسائل الحضارة الاخرى • ولا يعتمد هذا المجتمع على نظام تقسيم العمل والتخصص فيه ، لهذا يكون المستوى المعاشي فيه واطئا • الا أن هذا المجتمع كما يقول ابن خلدون سرعان ما يتحول الى مجتمع حضري بالكثافة السكانية العالية والتخصص في العمل والمستوى المعاشي والاجتماعي العالي(٣٠) • واخيرا تكون العلاقات الاجتماعية بين أفراده ضعيفة ومفككة واخيرا يتميز المجتمع الحضري بتنوع العناصر السكانية وكثرة الاجانب فيه •

---

(٢٧) ابن خلدون ، المقدمة ، بيروت ، دار القلم ، ١٩٧٨ ، ص ٤١ •

(٢٨) Becke, H. and, H. Barnes social thought from Love to science Vol. 1. New York, Dover 1961. p. 266.

(٢٩) شرف الدين ، خليل ، ابن خلدون ، بيروت ، منشورات دار ومكتبة الهلال ، لا توجد سنة نشر في الكتاب ، ص ٦٢ •

(٣٠) الحسن ، احسان محمد (الدكتور) ، علم الاجتماع ؛ دراسة نظامية ، ص ٢٤ ؛

أن عمر المجتمع لا يعدو في الغالب ثلاثة أجيال، فالجيل الاول لا يزال على خلق البداوة وخشونتها وتوحشها من شظف العيش والبسالة والافتراس والاشتراك في المجد ، ولا تزال بذلك صورة العصبية محفوظة فيهم فحدهم مرهف وجانبهم مرهوب والناس لهم مغلوبون[٣١] . والجيل الثاني كما يقول ابن خلدون تحول حالهم بالملك والترفه من البداوة الى الحضارة ومن الشظف الى الترف والخصب ومن الاشتراك في المجد الى أنفراد الواحد به وكسل الباقين عن السعي فيه . ومن عز الاستطالة الى ذل الاستكانة ، فتنكسر صورة العصبية بعض الشيء . وتؤنس منهم المهانة والخضوع ويبقى لهم الكثير من ذلك بما أدرك الجيل الاول . وشاهدوا من اعتزازهم وسعيهم الى المجد ومراميهم في المدافعة والحماية ، فلا يسعهم ترك ذلك بالكلية وأن ذهب منهم ما ذهب ، ويكونون على رجاء مراجعة الاحوال التي كانت للجيل الأول أو على ظن من وجودها فيهم . وأما الجيل الثالث فينسون عهد البداوة والخشونة كان لم تكن . ويفقدون حلاوة العز والعصبية ، بما هم فيه من ملكة القهر . ويبلغ فيهم الترف غايته فيصيرون عيالا على الدولة وتسقط العصبية بالجملة . وهكذا يتحول المجتمع وتتحول عاداته وممارساته وقيمه من طور الى طور أخر[٣٢] .

أن فلسفة ابن خلدون التاريخية وتطبيقها على مسيرة المجتمعات البشرية لعبت الدور القيادي في فهم وأستيعاب طبيعة المراحل التطورية التي تمر بها المجتمعات . ومن خلال دراسته لفلسفة التاريخ استطاع أبن خلدون أستخلاص قانون يحكم حركة المجتمعات وهو قانون الاطوار الثلاثة . فالمجتمع البشري حسب تعاليم أبن خلدون لابد أن يمر في طور النشأة والتكوين ثم يمر في طور النضج والاكتمال واخيرا يشهد طور الهرم والشيخوخة حيث يقوم على أنقاضه مجتمع أخر يسير في نفس المراحل التي سار فيها المجتمع السابق[٣٣] ان الحركة الاجتماعية كما يقول أبن خلدون في دورة مستمرة وتؤدي وظيفتها بشكل آلي دون انقطاع أو توقف . أو فناء نظم المجتمع هو نقطة نهاية وبداية . فحيث ينتهي مجتمع ما لابد أن يستأنف السير مجتمع أخر ليكمل مسيرة المجتمع السابق . والمجتمعات الانسانية ولو انها تخضع حتما لهذه الادوار المتتابعة غير أنها تختلف في مدى احتمالها لمرحلة دون أخرى ، فمنها ما يبقى مدة طويلة في دور النضج ومنها ما يقاوم الشيخوخة ومنها ما يموت يافعا .

ولا يكتفي ابن خلدون بان يقرر ان المجتمع حقيقة يجب أن تدرس وان علم الاجتماع هو الذي يدرس المجتمع البشري وما يلحقه من عوارض ، بل يحاول اكثر من ذلك اذ يحلل الضرورة الاجتماعية ويكشف عن الدعائم التي تقوم عليها . فيقول إن الاجتماع الانساني ضروري لان الانسان مدني بطبعه[٣٤] . ويسير في شرح هذه القضايا على وتيرة من سبقه من المفكرين كارسطو والفارابي . ويقرر ان عدم كفاية الفرد لنفسه يدفعه الى التعاون والاشتراك في حياة الجماعة ومن ثم ينشأ التضامن الذي يعتبر اقوى الدعائم التي يقوم عليها المجتمع . وما فطر عليه الانسان من شعور نحو الجماعة يدفعه الى الاستكمال بغيره ليستكمل بذلك خواصه النوعية والجنسية فضلا عن حاجاته الضرورية . وقد يكون التضامن على أنواع كثيرة كالتضامن الاقتصادي والسياسي والثقافي والعائلي . ففي حالة التضامن السياسي اي دخول الافراد في علاقات تعاونية تستهدف تمشية امور المجتمع والسيطرة عليه والكفاح من أجل تحقيق أهدافه وطموحاته فان الدولة تظهر من هذا التضامن . والدولة حسب اعتقاد ابن خلدون من اقوى مظاهر التضامن الاجتماعي واكثرها اهمية وخطورة في تحديد معالم المجتمع وصورته السياسية[٣٥] . والدولة كالمجتمع في نظر أبن خلدون شيء طبيعي وهي لهذه الصفة تخضع لقوانين عامة ، مثلها في ذلك مثل الظواهر الفردية وظواهر الحياة في الكائنات الحية . ولذلك يبذل قصارى جهده في تفسير مبادئها وتحليل وظائفها والكشف عن العوامل التي تؤثر في نشأتها واستقرارها وتطورها .

---

(٣١) شرف الدين ، خليل . ابن خلدون ، ص ٢٢٩ .
(٣٢) نفس المصدر السابق ، ص ٢٤٠ .
(٣٣) الخشاب ، مصطفى . علم الاجتماع ومدارسه ، ص١٥٣.
(٣٤) ابن خلدون ، المقدمة . ص ٤٢ .
(٣٥) الحسن ، احسان محمد (الدكتور) . علم الاجتماع السياسي ، مطبعة جامعة الموصل ، الموصل ، ١٩٨٤ ، ص ٣٤ .

وثمة نقطة اخرى يجدر الاشارة اليها وهي ان ابن خلدون كان يدرس الظواهر الاجتماعية في حالة استقرارها وفي مظاهر تطورها ، واذا جاز لنا ان نعبر عن ذلك بالمصطلحات العلمية الاجتماعية الحديثة نقول ان ابن خلدون كان يدرس الظواهر من الناحيتين السكونية والداينميكية ، اي انه فطن الى اهمية الدراسة الداينميكية (التطورية) الى جانب عنايته بدراسة الظواهر من الناحية السكونية اي الحالة التى هى عليها في مكان وزمان معينين • فقد عنى ابن خلدون في دراسته لكل طائفة من طوائف النظم العمرانية بأن يمزج بين هاتين الناحيتين(٣٦) • فكان يدرس عناصر الظاهرة واجزائها ووظائفها وما الى ذلك من مسائل الدراسة السكونية ويدرس في الوقت نفسه تطورها والقوانين التي تخضع لها في هذا التطور • ان الطريقة التي سار عليها ابن خلدون في هذا السبيل طريقة سليمة لانه من المتعذر في علم مثل علم الاجتماع ان نفصل في دراستنا بين الناحيتين السكونية والداينميكية كما فعل أوكست كونت فيما بعد(٣٧) • وادى به هذا الفصل الى أخطار كثيرة أوهنت عظمة بحوثه وقللت من شانها •

ودرس ابن خلدون النظم العمرانية للمجتمع اي الانظمة الفرعية التي يتكون منها البناء الاجتماعي • وتختلف هذه النظم باختلاف وجوه النشاط العمراني • ولذلك نراه يدرس كل طائفة منها على حدة • فقد درس الظواهر السياسية في الفصل الثالث من مقدمته ، ودرس الظواهر الاقتصادية في الفصل الخامس ، ودرس الظواهر التربوية في الفصل السادس • وعرض في ثنايا دراساته طائفة كبيرة من الظواهر العائلية والاخلاقية والجمالية والدينية واللغوية وظواهر أخرى تتعلق بالسحر والشعوذة والطلاسم ••• الخ • ودراساته هذه تدلنا على أنه استوعب معظم فروع علم الاجتماع وعالج اهم ابوابه وبذلك يكون أول من وصل الى ضرورة قيام ما اصطلح العلماء المحدثون على تسميته (الاجتماع الوظيفي) Functional sociology هذا العلم الذي لا يختلف في موضوعه عن موضوعات النظم العمرانية التي عالجها ابن خلدون في مجمل فصول مقدمته •

(٣٦) الخشاب ، مصطفى . علم الاجتماع ومدارسه ، ص ١٤٤ .

(٣٧) Martindale D. the Nature and types of sociological theory Boston, Houghton Mifflin co. 1981, pp. 77-80.

واخيرا يتجسد دور ابن خلدون في تطوير علم الاجتماع في محاولاته المجدية بالفصل بين الحقائق الاجتماعية والطبيعية من جهة وبين القيم الاخلاقية والمثالية من جهة اخرى(٣٨) • فابن خلدون يعتقد بضرورة التزام الكاتب او المفكر بالفصل بين الحقيقة والخيال لكي يتمكن القارىء او المختص من استيعاب الحقائق والتعرف عليها وفي الوقت نفسه الشعور بالقيم والمثل ان وجدت • كما أن المفكر الاجتماعي يجب أن يهتم بعرض ووصف وتحليل الحقائق كما هي وعدم مزجها بالقيم والاهواء والمقاصد والنزعات والمصالح التي يحملها ، لان مثل هذا المزج يفسد الحقائق ويسيء الى موضوعية وعقلانية البحث العلمي • اذن على المفكر الاجتماعي كما يؤكد ابن خلدون الاهتمام بما هو كائن وعدم الاهتمام بما يجب أن يكون • ومثل هذه التعاليم أدت دورها الكبير في ظهور واستقلالية علم الاجتماع •

اتجاهات الفكر الاجتماعي عند العرب في ضوء مساهمات الرواد الاوائل

بعد الاطلاع على الافكار والطروحات والنظريات والقوانين الاجتماعية العلمية التي عبر عنها المفكرون الاجتماعيون العرب خلال خمسة قرون ابتداء منذ القرن العاشر الميلادي وحتى القرن الخامس عشر الميلادي نستطيع أن نستنبط البدايات التاريخية لعلم الاجتماع ، هذه البدايات التي أصبحت فيما بعد حجر الاساس لعلم الاجتماع الكلاسيكي الذي نهض به الاوربيون امثال أوكست كونت وسبنسر وكارل ماركس واميل دور كهايم خلال القرن التاسع عشر(٣٩) • ولكن ما جاء به علماء الاجتماع في أوربا والولايات المتحدة الكلاسيكيون منهم والمحدثون ما هو بالحقيقة الا امتداد لما طرقه المفكرون الاجتماعيون العرب في سياق نظرياتهم عن طبيعة المجتمع وقوانين ثباته وتحوله وما هية النظم الاجتماعية وتكاملها والعلاقة بين الفرد والجماعة من جهة وبين الجماعة والمجتمع من جهة اخرى ومورفولوجية المجتمعات وتحليلها الى عناصرها الاولية والقيادة والمجتمع ومنهجية الدراسة والبحث في العلوم الاجتماعية ودور القيم في التربية والسلوك •

(٣٨) ابن خلدون . المقدمة ، ص ٩ .

(٣٩) Hinkle, R. the Development of Moderen sociology New York Random House 1963 p. 4-5.

في هذا المبحث نستطيع توضيح الاتجاهات الاساسيه للفكر الاجتماعي عند العرب كما عبر عنها الاجتماعيون العرب قبل اكثر من خمسه قرون والتي يمكن ان تكون التراث الاجتماعي العلمي الذي يرتكز عليه علم الاجتماع العربي • ويمكن درج الاتجاهات الاساسيه للفكر الاجتماعي العربي بالنقاط التاليه :

١ ـ تفسير أصل نشوء المجتمع •

٢ ـ العلاقة بين الفرد والمجتمع •

٣ ـ المورفولوجية الاجتماعية •

٤ ـ التشريح الاجتماعي وتكامل النظم الاجتماعية (العمران البشري) •

٥ ـ السكون والديناميكية الاجتماعية •

٦ ـ القيادة في المجتمع المثالي •

٧ ـ تصنيف المجتمعات الانسانية •

٨ ـ طبقات المجتمع •

٩ ـ منهجية العلوم الاجتماعية •

١٠ـ دور القيم في التربية والسلوك •

والان نود شرح وتحليل هذه المحاور كما وردت في أعمال ومنجزات الرواد الاجتماعيين العرب امثال الفارابي وابن بطوطه واخوان الصفا وابن خلدون •

١ ـ تفسيرات اصل نشوء المجتمع

ينطلق المفكرون الاجتماعيون العرب في تفسيرهم لاصل نشوء وتطور المجتمع الانساني من تعليل حقيقة الاجتماع الانساني ، اذ يعتقدون بان الانسان هو حيوان اجتماعي بالطبيعة نظرا لسيطرة الغريزة الاجتماعية عليه سيطرة كاملة. واجتماعية الانسان هي التي تقود الى اندفاعه نحو تكوين علاقات اجتماعية مع الغير وظهور أنماط مختلفة من التضامن كالتضامن الاقتصادي والسياسي والثقافي والروحي والقيمي ••• الخ • ففي حالة التضامن السياسي الذي يستدعي دخول الافراد في علاقات تعاونية تهدف الى تمشية امور المجتمع والسيطرة عليه والكفاح من أجل تحقيق أهدافه وطموحاته تظهر الدولة لتؤدي الوظائف الجليلة التي يحتاجها الافراد وتسيطر على المجتمع سيطرة تنتج في تحقيق أهدافه القريبة والبعيدة •

٢ ـ العلاقة بين الفرد والمجتمع

يعتقد الرواد الاجتماعيون العرب بأن الفرد هو الوحدة الاساسية لتكوين المجتمع ؛ ولولا الفرد لما ظهر المجتمع ولما أستطاع ان يتطور وينمو ويتقدم في معالم الحضارة والمدنية • كما أن الفرد يحتاج الى المجتمع لان الاخير هو أساس طموحات وأماني وأهداف الفرد ، وأنه يزود الفرد بالمهارات والقابليات ويعلمه العادات والتقاليد والقيم ويلقنه اللغة التي يتكلم بها والدين الذي يؤمن به ويدافع عنه عندما تداهمه المخاطر والتحديات • ومن جهة أخرى نلاحظ بان المجتمع يحتاج الى افراد يعتبرون بمثابة الوحدات العامله تحقق اهدافه وتدافع عن مصالحه وتتخذ القرارات والاجراءات التي من شانها أن تطور المجتمع وتدفع حركة تقدمه الى أمام •

ويعتقد علماء الاجتماع العرب نتيجة تأثرهم بمبادىء وتعاليم الدين الاسلامي بان الفرد لا يمكن أن يأتي قبل الجماعه(٤٠) • وان الجماعة لا يمكن ان تأتي قبل الفرد ذلك أن الفرد مهم للجماعه والجماعة مهمه للفرد وأن هناك درجة عاليه من التكامل بين الفرد والجماعة • فالفرد لا يمكن أن يفضل على الجماعة باعتبار ان الاخيرة مصدر الاحكام والقوانين والعادات والتقاليد والاخلاق والقيم • كما أن الجماعة لا يمكن أن تفضل على الفرد باعتباره الوحدة الاساسية لبناء المجتمع •

والغاية والوسيلة من الوجود الاجتماعي بما يتضمنه من عوامل مادية وروحية •

٣ ـ المورفولوجية الاجتماعية

أهتم علماء الاجتماع العرب الاوائل كابن بطوطة وابن خلدون بمورفولوجية المجتمعات التي تنطوي على أشياء كثيرة كالتوزيع المهني والجغرافي للسكان والتوزيع العمري والجنسي للسكان والعلاقة بين معالم البيئة الطبيعية ومعالم البيئة الاجتماعية والتوازن بين حجم السكان وحجم الموارد الطبيعية •• الخ • لقد درس ابن خلدون في كتابه المقدمة كل ما يتعلق بسكان المجتمع البشري من حيث صفاته البايولوجية والاجتماعية والعوامل المؤثرة في زيادته أو قلته وهجرته من مكان لاخر • وتناول دراسة العلاقة بين المناخ وقيام الحضارة والمناخ والعادات

---

(٤٠) بدر ، عثمان زكي (الدكتور) . النظام الاجتماعي : دراسة موجزة في نظريات علم الاجتماع ، القاهرة ، دار النهضة العربية ، ١٩٧٣ ، ص ٦٣-٦٤ .

والتقاليد والقيم ومزاج الشعوب . أما ابن بطوطة فقد درس أثر الظواهر الطبيعية والمناخية والارضية في قيم وعادات وأديان المجتمعات التي زارها ، واشتق قوانين اجتماعية تونية تفسر العلاقة بين العالم الطبيعية والحضارات الانسانية التي شهدتها المصورة .

٤ ـ التشريح الاجتماعي (العمران البشري)

يركز ابن خلدون انتباهه وجهوده الفكرية في كتابه المقدمة على موضوع التشريح الاجتماعي . أي الاجزاء والنظم الفرعية التي يتكون منها المجتمع . فابن خلدون يقارن بين الكائن الحيواني والكائن الاجتماعي من ناحية البناء والوظائف . فالمجتمع بنظره لا يختلف عن الكائن الحيواني الحي ، فكما يتكون الكائن الحيواني الحي من أجهزة عضوية بايولوجية فان المجتمع الانساني يتكون أيضا من نظم وبنى فرعية لها وظائف معينه ومترابطه بعضها ببعض ، كالنظام السياسي والنظام الديني . والنظام العائلي والنظام التربوي . ومجموعة هذه النظم التي لها أهداف محددة تسمى بالعمران البشري الذي خصص له ابن خلدون عدة فصول في كتابه المقدمة . كما أن هذه النظم هي التي تعين أنشطة المجتمع وفي بعض الحالات ترسم المسيرة التطورية للمجتمع خصوصا عندما يتطور أحدها تطورا فجائيا وجذريا بحيث يؤثر على بقية الانظمة . وهنا يحدث ما يسمى بالتحول الاجتماعي .

٥ ـ السكون والداينميكية الاجتماعية

يرى علماء الاجتماع العرب بأن المجتمع البشري هو كائن ساكن ومتحرك في آن واحد . فابن خلدون يشير الى ان المجتمع البشري خلال نقطة زمنية محددة هو كائن ساكن ، وسبب سكونه يرجع الى تكامل المؤسسات أو النظم الاجتماعية التي يتكون منها . وانه في ذات الوقت كائن متحرك وداينميكي خصوصا اذا نظرنا اليه خلال فترة زمنية طويلة . فالمجتمع يتحول كما يعتقد أبن خلدون من مجتمع بدوي ريفي الى مجتمع حضري مستقر كما انه يمر بثلاثة ادوار اساسية تحقق سعادة الفرد وكمال المجتمع وازدهاره في ميادين الحياة كافة وقد أكد هؤلاء العلماء على اهمية ودور القائد في مثل هذا المجتمع . ذلك أن مركز القائد في المجتمع كما يقول الفارابي في كتابه «أهل المدينة الفاضلة» هو كمركز القلب بالنسبة لسائر أعضاء الجسم . لذا ينبغي أن يتسم القائد بصفات ايجابية ونادرة تؤهله على القيادة واحتلال الموقع المؤثر في الدولة والمجتمع وتمكنه من أداء المهام والمسؤوليات الخطيرة التي يضطلع بها والتي يعتمد عليها تقدم ونهوض وازدهار المجتمع .

وقد شخص الفارابي أهم الصفات التي ينبغي أن تتوافر عند القائد وهي صفة الذكاء والشجاعة والتواضع والعدالة وحب العلم والتضلع بامور الدين واللباقة وفصاحة اللسان وسلامة الجسم والعقل والمرونة وثبات الرأي والمزاج والقدرة على حل المشكلات والانقسامات التي تتحدى وحدة وكيان المجتمع ... الخ . كما حدد الفارابي أهم الوظائف التي يمكن أن يتحملها القائد وهي وظيفة الرئاسة والسيطرة على شؤون الدولة كافة ووظيفة تحديد مشكلات وتناقضات المجتمع والعمل على حلها مبغاة لتحقيق تماسك ووحدة المجتمع ووظيفة نشر العدالة والمساواة واحلال الرفاه والطمانينة في ربوع المجتمع واخيرا الوظيفة الاداريةوالتنفيذية التي تضمن سير أعمال الدولة التي تهدف الى سد حاجات الافراد وتلبية طموحاتهم وتحقيق السعادة لهم .

٦ ـ تصنيف المجتمعات الانسانية

لكل عالم أجتماعي عربي نظرية لتقسيم وتصنيف المجتمعات . فابن خلدون لا يقسم المجتمعات الى أنواع مختلفة تبعا لدرجة نضجها التاريخي وتقدمها الحضاري فحسب بل يشير الى المعيار الاساس الذي يعتمد عليه في تصنيف المجتمعات . كما انه يعطي الصفات الاساسية لكل نمط من أنماط المجتمعات ويتكلم عن ماضيه ومستقبله . يعتقد أبن خلدون بأن هناك نوعين من المجتمعات : المجتمع الريفي أو البدوي والمجتمع الحضري ، والمجتمع غالبا ما يتحول من مجتمع بدوي غير مستقر الى مجتمع حضري مستقر . والمجتمع البدوي يتميز بصفات شاخصة

أهمها هبوط الكثافة السكانية وعدم التخصص في العمل وهبوط المستوى المعاشي والصحي والثقافي والاجتماعي وسيطرة الدين على أنشطة الفرد والمجتمع ... الخ . أما المجتمع الحضري فيتميز بارتفاع الكثافة السكانية وتنوع عناصر السكان وانتهاج نظام تقسيم العمل وارتفاع المستوى المعاشي والاجتماعي والصحي وسيطرة الدولة على أنشطة المجتمع وضعف العلاقات الاجتماعية بين الافراد والجماعات . أما المعيار الذي يستند اليه ابن خلدون في تقسيم المجتمعات فهو طبيعة الاستيطان الجغرافي ودرجة التقدم الحضاري التي يستطيع المجتمع بلوغها .

ويقوم الفارابي بتصنيف المجتمعات او الدول كما يفضل تسميتها في كتابه « أهل المدينة الفاضلة » الى نوعين : المجتمعات الفاضلة التي ترتكز على مبادىء الفلسفة الاجتماعية التي يقرها الدين الاسلامي . وهذه المجتمعات هي التي تحقق الكمال والسعادة بالنسبة للافراد والجماعات . والمجتمعات غير الفاضلة التي يصنفها الفارابي الى أنواع مختلفة كالمجتمعات الجاهلة والمجتمعات الضالة والمجتمعات الفاسقة ومجتمعات الاباحية ... الخ . أما المعيار الذي يعتمده الفارابي في تقسيم المجتمعات فهو معيار التمسك بالاخلاق الفاضلة التي تنبعث من أخلاقية وتعاليم الاسلام .

٧ ـ طبقات المجتمع

أهتم علماء الاجتماع العرب الاوائل بدراسة البناء الطبقي في المجتمع ، اذ قسموا المجتمع الى طبقات مختلفة ووضحوا المقاييس الموضوعية والذاتية للانتماءات الطبقية وأشاروا الى ظاهرة الحراك الاجتماعي من حيث وجودها أو عدم وجودها وأثرها في عملية التحول الاجتماعي . فقد قسم أخوان الصفا المجتمع الى ثلاث طبقات هي طبقة الحكام والنبلاء وطبقة الاغنياء وطبقة الفقراء . ويرجع نشوء هذا النظام الطبقي الى تفاوت الناس في الكفاءات والقابليات والميول والرغبات في أداء الاعمال والخدمات التي يحتاجها المجتمع . واختلاف طبقات الناس يسهل قيام كل طبقة بعمل معين ومن ثم تتعاون الطبقات الاجتماعية على تحقيق التكامل في الوظائف الاجتماعية .

أما ابن بطوطة فيقسم طبقات المجتمع الى ثلاثة انواع هي طبقة النبلاء ورجال الدين والطبقة الوسطى وطبقة العوام . والانتماءات الطبقية هذه تعتمد على عدة متغيرات أهمها الحسب والنسب والانحدار العائلي والقابلية والذكاء والظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي يمر بها المجتمع وثقافة الفرد وأمكاناته المادية . كما يضيف ابن بطوطة قائلا بان النظام الطبقي في الريف هو نظام مغلق لا يعطي المجال للفرد بالحركة الاجتماعية من طبقة الى أخرى . بينما النظام الطبقي في الحضر هو نظام يكاد يكون شبه مفتوح ، فبعض الافراد لظروف معينة يمكن أن ينتقلوا من طبقة لاخرى .

٨ ـ منهجية العلوم الاجتماعية

يشير ابن خلدون في كتابه المقدمة بان علم العمران البشري يهتم بما هو كائن ولا يهتم بما ينبغي أن يكون . ويمكن تعليل هذا القول بان العالم أو المختص يجب أن يفصل بين الحقائق التي يريد وصفها وسردها وتحليل مضامينها وأبعادها وبين الاهواء والنزعات والميول والاتجاهات والرغبات الذاتية التي يحملها . والفصل بين الحقائق والقيم من قبل العالم ليس هو بالعملية السهلة كما يتصور البعض . فالكاتب او المفكر أو العالم غالبا ما يسرد الحقائق ويصفها ثم يقيمها بموجب المقاصد والاهواء الشخصية التي يحملها ، وطغيان أهواء ونزعات وميول الكاتب على الحقائق والظواهر العلمية التي يريد كشفها وتعرية جوانبها الخفية والظاهرة انما يفسد طريقة التحليل ومنهج البحث وتقصي الحقائق . لهذا كان ابن خلدون من اول العلماء والمفكرين الذين نادوا بضرورة التزام العالم او الباحث بمنهجية البحث العلمي التي تتطلب ضرورة الفصل الواضح بين الحقائق والقيم أي الفصل بين ما هو كائن وبين ما ينبغي أن يكون . ومثل هذا الفصل لابد أن يمكن المفكر او الباحث الاجتماعي من

التخصص بوصف الظواهر وتحليلها وتشخيص العوامل الموضوعية والذاتية والربط بينها من أجل تعليل أو شرح عملية أجتماعية مهمة كالزواج والاسرة والحرب والحضارة والعبودية والاقطاع والملكية والارث والدولة والقانون ... الخ .

٩ ـ دور القيم في التربية والسلوك

يؤكد علماء الاجتماع العرب على أهمية المبادىء والقيم الاخلاقيه والسلوكية في بناء وتقدم المجتمعات . كما يعتبرون القيم الاجتماعيه الايجابيه من العوامل الاساسية التي تدخل في عملية التربيه والتقويم ؛ فهذه القيم يجب أن يتمسك بها المربي سواء كان أبا أو معلما أو مرشدا دينيا او قائدا سياسيا لكي يستطيع أولا أن يكون ذا شخصية مؤثرة تمكنه من تمرير القيم المطلوبه الى الجيل الناشيء ولكي يتمكن ثانيا من خلق جيل قوي ومؤمن ومدرب يعتمد عليه المجتمع في نهوضه وتقدمه . ومعظم القيم التي يؤكد على أهميتها علماء الاجتماع العرب الاوائل هي القيم المشتقة من التراث الحضاري العربي الاصيل ومن الدين الاسلامي وشريعته السمحة كقيم البطولة والشجاعة والايثار وقيم التواضع والتسامح وعدم التكبر والغرور وقيم النزاهة والكرامة والاعتداد بالنفس وقيم الثقة العالية بالنفس والقدرة على أتخاذ القرار وقيم الصدق والاخلاص في العمل وتحمل المسؤولية وأحترام الكبير والعطف على الصغير وقيم العفة والطهارة والشرف .

ولم يشخص علماء الاجتماع العرب الاوائل القيم الاجتماعية الايجابية فحسب بل حددوا أيضا طرق أستدخالها في النفوس وكيفية تاثيرها على العلاقات الانسانية والسلوك . فالسلوك في نظرهم ما هو الا تجسيد لطبيعة القيم التي يؤمن بها الفرد . ذلك أن السلوك الحسن أنما هو تجسيد حي للقيم الايجابية التي يحملها الفاعل ، والسلوك الشين والقبيح أنما هو تجسيد حي للقيم السلبية التي يحملها الفاعل . لذا نستطيع معرفة مبادىء وقيم واخلاقية الفرد من خلال النظر الى سلوكه وسيرته . ويؤكد علماء الاجتماع وعلماء النفس الاجتماعي المعاصرون على نفس هذه الحقائق العلمية(٤١) . التي طرحها المفكرون الاجتماعيون العرب قبل أكثر من خمسة قرون .

الخاتمة

بعد دراسة وتحليل الافكار والطروحات والنظريات الاجتماعية التي عبر عنها المفكرون الاجتماعيون العرب في سياق نظرياتهم الاجتماعية والسياسية أستطعنا أشتقاق جملة من المحاور الاجتماعية التي تشكل العمود الفقري للتراث الاجتماعي العربي . هذا التراث الفكري الخصب الذي أعتمد عليه المفكرون والمنظرون الاجتماعيون الغربيون في رسم المعالم الجوهرية لعلم الاجتماع المعاصر ، بعد فصله عن بقية العلوم الاجتماعية الاخرى ، وفي تطوير طرقه البحثية والمنهجية التي ساعدته على تنمية موضوعاته وأنضاج نظرياته وتراكم المعرفة في حقوله الاساسية . لذا والحالة هذه ينبغي على علماء الاجتماع العرب المعاصرين الرجوع الى التراث الاجتماعي العربي الذي تجسد في أفكار ونظريات الرواد الاوائل وأخص منهم الفارابي وابن خلدون والاعتماد عليه في تفسير حقيقة الواقع الاجتماعي بعد الاخذ بعين الاعتبار التغيرات والمستجدات التي طرأت على علم الاجتماع في ضوء المساهمات الحديثة لعلماء الاجتماع في العالم . كما ينبغي أن يكون التراث الاجتماعي العربي المرجع الاساسي للملامح الحديثة التي يتسم بها علم الاجتماع العربي ؛ العلم الذي يجب أن تحدد خصوصياته وهويته القومية والحضارية التي تميزه عن علم الاجتماع البرجوازي وعلم الاجتماع الماركسي .

---

٤١ Krech D. and Crutchfield Individual in society New York 1963 see the ch. on Attitudes.